

سمح كما عرفتھا الجزء الأول، أكبر من قرية وأصغر من مدينة

يقال إن في وسع أي إنسان، أن يكتب كتاباً واحداً. ولعلّ هذا الكتاب هو سيرة حياة ذلك الإنسان سواء أكان من الأعلام المشاهير الذين كانوا يوصفون (بالخاصة) أو (علية القوم) ، ويوصفون الآن (بالنخبة أو النخب) علماً بأن الكثير من هذه (النخب) إنما هي (حالات) طغت فوق سطح السائل بدل أن (تتحول) أي تستقر في قراراته بل في قعره.

حسناً، في وسع أي إنسان إذن، أن يكتب سيرة حياته، سواء أكان من النخبة أو من العامة، أو من غمار الناس، أو بتعبير أبي الفرج الأصفهاني في أغانيه الشهرة، أي من أولئك الناس الذي يشبه بعضهم بعضاً، لا في السمات والقسمات والوجوه بل في مسيرة حياتهم المتشابهة، أم كان من أولئك الناس الذين يقفون بين بين، فلا هم من أعلام الناس الذين تؤلف عنهم الكتب، أو من الأغمار أي المعمورين الذين لم يسمع بهم أحد.

وأنا فكرت مراراً بأن أكتب ما يشبه المذكرات أو الذكريات أو حسناً سيرة حياتي الشخصية لا (قصة حياتي) على غرار (قصص الحياة) تلك التي يرويها (بعضهم لبعضهن آخر الليل في بعض علب الليل) علماً بأن سيرة حياتي إذا جاز وصفها كذلك، ليست تلك السيرة الملحمية ولا هي أيضاً سيرة رجل مجهول على غرار رواية (أنطون تشيخوف) الشهيرة أي قصة رجل مجهول ولكن فيها وقائع وأحداثاً عشتها وربما كانت تستحق أن تروى ... نعم لقد فكرت في كتابة هذه السيرة مراراً، وكنت أرجئ هذه الكتابة إلى أن أتخفف من بعض أعبائي المهنية في الصحافة المكتوبة، والمسموعة، أي الإذاعية ولكن متى؟؟ نعم متى؟؟ فقد (وهن العظم مني) أو يوشك أن يهن، (واشتعل الرأس شيباً) وإن لم يشتعل إلى درجة الحريق ...

وإذن فإن هذه فرصة لأكتب إما سيرة حياتي، أو في أقل الأقل نواة لهذه السيرة .. قد أضيف إليها بعد ذلك ما أراه يستحق الإضافة وإذن، فلأبدأ: لقد ولدت في 18/12/1933 في بلدة صغيرة في فلسطين تدعى (سمح) وهي قريبة جداً من الحدود الفلسطينية السورية، وكذلك من الحدود الفلسطينية الأردنية، وتقوم على شرف، أي مرتفع ينحدر انحداراً سريعاً إلى شاطئ بحيرة (طبريا) أي أنها تقوم جنوبي هذا الشاطئ، وأما بحيرة طبريا هذه فقد أسميت باسم المدينة التي تقوم غربي هذا الشاطئ ونسبت إلى الإمبراطور الروماني الذي بناها وهو (طيباريوس قيصر) كما أنها تعرف أيضاً ببخيرة (الجليل).

وبلدة (سمح) هذه تقوم تحت سطح البحر (بمئة وثمانية أمتار)، حسب اللوحة المرفوعة في محطة القطار على

الخط الحديدي الحجازي، الذي أنجزته الدولة العثمانية في عام 1909 بواسطة شركة ألمانية .. ولولا أعجلتني (سيرة حياتي) هذه، لحاولت معرفة أصل تسمية بلدتي هذه، فهل كان أصلها (سمخ) من السماح أي الجمال الطبيعي، وكيف لا تكون كذلك وهي بلدة مشمسة ذات سماء زرقاء صافية معظم العام، إلا إذا اعتراها (الآن) ما يعتري العالم في عصر التلوث، وهل جاء اسمها من (السّمك) الذي أصبح (سمخا) وبهذا السمك تفيض بحيرة طبريا أو بحيرة الجليل، وخصوصاً سمك (المشط) الذي يروي أمين الريحاني إنه لا يوجد إلا فيها، وفي البحرين وإن كان (مشط سمخ) نهرياً أو بحيرياً، وكان مشط (البحرين) بحرياً وعلى أية حال سوف أعمد إلى مثل هذا (التقصي) لأصل تسمية سمخ بعد أن أتخفف من بعض أعبائي المهنية أيضاً لكن متى !!؟؟

لكنني ألاحظ أن حروف السين والميم والحاء والياء تشكل أسماء بعض القرى السورية الأردنية المجاورة لبلدة (سمخ) فهناك (سحم الجولان)، و(سما) و(الشمرة) و(سحم الكفارات) في الأردن. فلربما كان ثمة رابط، بين هذه الأسماء وإن كنت لا أجزم الآن بذلك، فالأمر يتطلب التدقيق والتمحيص ولا أقول الغوص في مؤلفات أجدادنا القدماء من المؤرخين والجغرافيين والرحالة بل العودة إلى أقرب الموارد. وهو موسوعة العلامة الفلسطينية الكبير الأستاذ (مصطفى مراد الدباغ) وهي (بلادنا فلسطين) أما بلدتي (سمخ) فهي قرية إذا كانت القرية حسب الجغرافيا البشرية هي المكان الذي يستمد أهله حياتهم من الأرض مباشرة، لأن أهل (سمخ) كانوا- وما أصعب كلمة كانوا- يستمدون حياتهم من الأرض مباشرة أي الزراعة، زراعة الحبوب تحديداً، وإن كانوا يستمدونها من البحيرة أيضاً، أي صيد السمك، كما أن قريتي هذه أي (سمخ) كانت شبه مدينة لأن فيها مرافق عديدة. فهناك محطة السكك الحديدية، ولعلها بين محطة حيفا في فلسطين ودرعا والقدم في سورية أهم هذه المحطات ... فقد كان فيها الـ depot وهو مرآب القطارات إذا جاز التعبير وإلى جانبه جوسق أي فيلا مبنية من الحجارة السوداء لئلا تتأثر بدخان القاطرات المخزنة إلى جانبها ويلحق بهذا المرآب أرضية مستديرة حديدية ضخمة لها عجلات يدفعها العمال من أجل تشحيم القاطرات أو غسلها .. وبعدها إلى القرب يقوم العنبر وهو مخزن البضائع القادمة من سورية إلى فلسطين أو الذهاب من فلسطين إلى سورية وأكثرها من الحمضيات، وإلى جانبه بيت لمدير العنبر، ثم مبنى الحركة وبيع التذاكر ويتألف من قسمين قسم سوري من أجل المسافرين إلى سورية، وقسم فلسطيني من أجل الزائرين إلى المدن الفلسطينية وخصوصاً بيسان وحيفا وعكا، وفي الطابق العلوي بيت ناظر المحطة وهذا المبنى مشيد بالحجر الأبيض، يليه دارة صغيرة لمسؤول إصلاح الخطوط الحديدية، إن كانت تحتاج إلى إصلاح أو صيانة وكانت مبنية بالحجر الأسود، تليه دارة بالحجر الأبيض للمدير السوري لمحطة القطار تتأخم وتجاور بيتنا أو دارتنا التي لا علاقة لها بالخط الحديدي الحجازي، بل بدائرة التلغرافات (الهاتف) الفلسطينية، انظر إلى الوراثة في حين لأتذكر أن مدير محطة الحجاز الفلسطينية كان سورياً دمشقياً هو المرحوم خيرى شحادة آغا، وأن مدير صيانة الخطوط كان مصرياً، وقال إنه من بلد في مصر يدعى (القناطر الهريديّة) وليست القناطر الخيرية، وأما مدير محطة الحجاز السورية، فكان من بقايا الترك الطيبين في

دمشق، وهو المرحوم جميل شريف إبراهيم .. ، وكان مع أفراد أسرته يتحدثون العربية في طلاقة، وأما الكبار منهم فكانوا يتحدثون أيضاً بالتركية، وأما أبناؤه من جيلي فلم يعرفوا إلا اللغة العربية ولا يزال جبل الود موصولاً بيننا في دمشق، وإذن فقد كانت منشأة محطة الحجاز إما من حجارة سوداء، أو بيضاء على التوالي في تراتب بديع وتعلوها سطوح القرميد تبرز منها المداخل.

كذلك كان في قرية أو مدينة (سمخ) ولنقل إنها (بلدة سمخ) كان فيها دائرة للجمارك، ومضخة ضخمة للمياه من بحيرة طبريا تدفعها من البحيرة إلى حاووز أي خزان تخرج منه ماسورة ذات قطر واسع نسبياً تدعى الجنيدرة تملأ خزان القطار الذي يغلي فيه الماء لكي يصبح بخاراً يسير القطار بطاقته، كما أن فيها مركزاً للشرطة (البوليس) أذكر أنه كان أصفر اللون شأن المنشآت العثمانية، فهدمه الإنجليز في مطالع الحرب العالمية الثانية، وبنوا في الموقع نفسه مركزاً ضخماً حصيناً بنوا العديد من أمثاله في فلسطين ويدعى tigart building تيغارت بلدنغ، وكان قلعة حصينة من الأسمنت المسلح، ولعله كان يتهياً لمواجهة القوات الألمانية أو قوات حكومة فيشي الفرنسية الموالية، بل العملية لألمانيا النازية، خصوصاً وأن بريطانية بنت حول بلدة (سمخ) استحكامات أرضية شديدة التحصين، وحفرت أمامها خندقاً عميقاً في خط متواصل كان يدعى (خط إيدن) الذي كان وزيراً لخارجية بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية كذلك كان في (سمخ) دائرة البحرية تدعى (يورت مارين) ولها كنش يصل إلى كرة عائمة في وسط البحيرة وكنا نسميها الطابة حيث كانت تحط فوقها طائرة برمائية بريطانية، لتسلم لنش اليورت مارين أي (بحرية الموانئ) ما تحمله من رسائل وغيرها لحكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، كذلك كان في (رية سمخ)أو (لدة سمخ)مدريستان واحدة نصف إعدادية أي حتى الصف السابع للبنين، ومن أراد متابعة الدراسة كان يذهب إلى مدينة طبريا المجاورة وتبعد اثني عشر كيلو متراً أو إلى صفد أو إلى حيفا، أو إلى القدس كما فعلت أنا ومدرسة نصف ابتدائية أي حتى الصف الرابع للبنات ومن أرادت المتابعة كانت تذهب إلى طبريا وكانت المقاعد الأولى في الحافلة تخصص لهؤلاء الطالبات، وكذلك الحال في الحافلة القادمة من طبريا إلى سمخ في نهاية الدوام.

خاص مؤسسة فلسطين للثقافة، رابط المقال الأصلي:

<https://www.thaqafa.org/site/pages/details.aspx?ItemId=2193>